الفصل العاشر

ماذا جرى للإسرائيليين فى مواجهة السلام؟

مناحم بيجن والسلام

أغسطس ١٩٨٠

تمنيت دائماً أن يواصل المفاوض المصرى مهمته ، ولا يكلّ ، ولا يفقد حماسه ولا منطقه ولا علمه ولا (تنغيصه) على حكومة إسرائيل .. فما كانت مفاوضات الحكم الذاتى سوى إحراج مستمر ، وكشف متواصل وإجبارٍ على عرض ما لا تطيق ولا تؤمن به ولا تهدف إليه .

ولهذا فما من شك للحظة أن من يرأس حكومتهم إنما اختار أن يرمى الآن بآخر سهم فى ابتكاراته الاستفزازية .. دون أى وقت آخر يختار ما يحار فى تعليله أى عقل . أن ينقل مكتبه من غرب القدس إلى قلب عروبتها فى الشرق ، وكأنه يبحث عن آخر سبيل يوقف به المفاوضات .. يقينى أن بيجن لديه من الأسباب ما يجعله لا يحتمل استمرار المفاوض المصرى فى طرح حقوق الفلسطينيين .. فى الوقت الذى لا يستطيع فيه أن يواجه مسئولية وقفه للمفاوضات ! لا يوجد تعليل آخر لهذه الاستفزازات أبدًا غير أن تكف مصر عن مطاردة الحكومة الإسرائيلية بحقوق للفلسطينيين ، وقَّعُوا عليها ولا قِبَل لهم بتنفيذها !

ولابد لنا الآن من مواجهة الواقع . ولابد من مراجعة أساسية للموقف بعد تجربة

تَعامُل تزيد حتى الآن على العام !

أما منا الآن – ولا تزال – حكومة إسرائيلية لا تؤمن بالسلام على أساس الانسحاب من أى أرض عربية .. برغم أنها اضطرت إلى الانسحاب من سيناء وحل أو تفكيك مستوطناتها فيها . ولكنها طريقتهم فى عقد الصفقات .. انسحاب من سيناء ظنوه على حساب بقائهم فى بقية الأراضى العربية . وبرغم أن مصر أعلنت وأكدت وكررت مرارًا – على المستوى الرسمى الشعبى والشخصى والفردى أيضاً – أن سيناء ليست مقابل أى أراضٍ عربية أخرى ..

إلا أن المشكلة الحقيقية أو مشكلتهم فى إسرائيل أنهم لم يصدقوا . لم يصدقونا . تماما كما لم يصدقنا بقية العرب سواء بسواء .

ولكن كيف قبلت هذه الحكومة الإسرائيلية التى كان معظم أعضائها فى المعارضة عام ١٩٦٧ كيف قبلت اليوم ما رفضته عندئذ .. كيف وقع بيجين على وثيقة تدعو لإقامة حكم ذاتى فلسطينى كامل .. على الضفة الغربية وغزة . كيف أقر بمدة انتقالية يشارك الفلسطينيون بعدها فى تقرير مستقبلهم .. هل كانت غلطة أو هى سقطة وقع فيها بيجن ويحاول اليوم الخلاص ، وفى سكرة النشوة بسلام غير متوقع هبط فجأة .. لا هم يملكون أن يردوه ولا يستطيعون أن يرفضوه ؟ . فليس أمامهم إذن إلاّ أن يواجهوه وقد كان .

عامل مفاجئ بل مستحيل لم يدخل فى اعتباراتهم ولم يضعوه فى حسبان ، ربما يكون هو أحد مشاكلهم الأساسية .. ومفتاح الحيرة التى يتخبطون فيها الآن .. كان مثل هذا السلام . وفى ذلك التوقيت وعلى هذا النحو مفاجأة كاملة للسياسيين الإسرائيليين كافة إنه عامل المستحيل الذى لم يقدروه ولم يحسبوا له حساباً من قبل .. وعمت ويحق فرحة وللسلام بهجة وفرحة . أى فرحة ولكن مثله مثل أى فرحة . أوله سكرة وآخره فكرة .. وفى سكرة الفرحة وذروة الشحنة العاطفية وعلى مشهد

من عالم متلهف هزته المفاجأة .. لم يكن أمام بيجين إلاّ أن يوقع .. هو الذى لم يعترف قطّ أو يوافق على قرار ٢٤٢ وجد نفسه يوقع على وثائق تقوم وترتكز على أسس هذا القرار.

وصفق العالم لمناحم بيجين وقالوا لقد تغير بالسلام . وتفتح فيه الفكر وانزاح الجمود . وخرج من تلافيف الماضى وانتصر على ماضيه .. وقيل لقد تحقق أخيرًا الخلاص من عقدة كل اليهود .

وحان وقت الامتحان ، حان موعد التفاوض لأول حقوق للفلسطينيين ، وبدأ ينكشف الوجه الحقيقى لحكم ليكود .. وائتلاف غُلاة المتطرفين . فلم يفهموا من السلام أكثر من كونه إعادة سيناء إلى مصر يعقبه انفتاح عاطفى على المصريين .

وبعد مرور أكثر من عام على المعاهدة مع مصر ، وبعد طوفان هائل وتلقائى أبداه المصريون تجاه السلام تأكيدًا وتأييدًا .. يُفاجأ الإسرائيليون الآن ببرود تلقائى من هذا الشعب الودود بطبيعته المضياف الكريم بسليقته .

ماذا حدث ؟ يتساءل الإسرائيليون بدهشة أو بجزع .. لا شىء حدث سوى أن هذا الشعب المصرى الحساس .. الذى تعكس تلقائيته ضميره ، وخبرة آلاف السنين .. هذا الشعب الذى رأى العالم فيه فرحة الأمل والثقة قد خبت فيه جذوة الثقة فيكم أيها الإسرائيليون !

يبدو أن العقل الإسرائيلى لايزال يعجز تماماً عن تفهُّم العلاقة التى تربط المصريين بقضية الفلسطينيين . ومازال هذا التساؤل يقابلك دوماً حتّى لدى أعلى مستويات المفكرين الإسرائيليين ، وممن يقدمون أنفسهم باعتبارهم من المعتدلين . وهذا التعبير وصف مهذب فى القاموس السياسى الحالى لإسرائيل ، ويعنى كل من هو مناهض ، معارض لفكر مناحم بيجن .

وأكاد أطلق التعميم فى هذا المعنى . وهو أن الإسرائيليين – كل الإسرائيليين –

لا يفهمون ولا يهضمون الارتباط المصرى بقضية الفلسطينيين « على حين أن مابينكم ليس غير الشكوك والاتهامات والإساءات .. » .

ولكن المسألة ليست موضوعاً لأشخاص يكوِّنون منظمة أو منظمات ، وليست أفراد ولا زيدًا ولا إيادًا (أبو عمار) ! المسألة عبارة عن قضية مبدأ التفريط فيها ، أو إزاحتها ، أو تناسيها – هو السقوط . والشعور النفسى بالسقوط . هو أفظع الشعور .

ولهذا لن نفرط فى القضية المبدأ .. ليس من أجل الفلسطينيين كأفراد أو جماعات . وإنما من أجل قضية عُمْر . والدليل فى ذلك هو أننا لم نشعر فى يوم أننا ندافع بحق كما نفعل اليوم ونحن نواجه الإسرائيليين بالمناقشة . وبالمنطق وبالعقل ..

كيف تثقون بنا – نحن المصريين – فيما لو لفظنا قضية الفلسطينيين ؟ ...

إنه يعرض شعور الإسرائيليين عموماً .. ولا يخفى أن السلام الذى « نتمناه ونرجوه ونعتبره افتتاحية هامة ونقطة تحول تاريخية إنما هو عملية من أخطر ما يكون على إسرائيل كدولة » .

فإن المصريين لا يقدمون – ربما العرب أيضاً على المدى الأطول – لن يقدموا إلا كل ما يمكن سحبه أو الرجوع فيه أو العدول عنه .. مثل هذا الواقع إنما يخلق أخطاراً الإسرائيل كدولة .. فى واقع مثل واقع معظم الأنظمة والدول فى الشرق الأوسط ، يصعب بالفعل التنبؤ بما يمكن أن يأتى به المستقبل .. فكل ما نتلقاه مرحلة بعد مرحلة من خلال هذا (التطبيع) إنما هو من النوع الذى يمكن إلغاؤه بإشارة من اليد .. سحب سفير . إغلاق القناة فى وجه السفن الإسرائيلية .. بل يمكن الكف عن التطبيع تدريجياً . وحتى وضع قوات حيث تحد منها المعاهدة من الممكن أن يحدث بلا أى صعوبة .. ومع ذلك فمن الذى يمكنه أن يشن حرباً مقابل ذلك ؟ ! وهذه مشكلة خطيرة وجوهرية . وماثلة أمام إسرائيل !

« وحتى اليوم . لايزال يوجد الكثيرون بيننا ممن يعتقدون أن السلام الذى نبحث عنه هو هذا (التطبيع) .. ولكن ما السلام حقيقة إلاّ حالة (القبول) التى تحصل عليها من جيرانك ! هذه هى المسألة الحاسمة . فإذا ما قبلنا جيراننا .. فلا بد أن هناك ستكون إمكانية معقولة فى استمرار بنيان العلاقات الرسمية دوماً . أما إذا لم يكن الأمر كذلك فسيكون هذا أشبه بورقة شجر فى مهب الريح ! » .

« ولابد من دراسة مبادرة السادات ومن هذا المفهوم .. فكلنا قد اعترتنا هزة عميقة عندما جاء إلينا ، وحدث جدال حول معنى العديد مما قاله واقترحه . ولابد لى من القول أن مع تراكم رصيد تجربتى من المناقشة مع المصريين فقد وصلت إلى هذه النتيجة . إنهم لم يسمعوا من خطابه سوى جملة أساسية . كانت بمثابة مفتاح هام فى خطبته أمام الكنيست .. قوله : إننا نرحب بكم بيننا فى هذه المنطقة من العالم .. أمناً وسلاماً . وبعد ذلك أضاف : (إنها للحظة حاسمة ونقطة تحول تاريخية) فإذا ما كنت متفهماً لما يدور فى ذهنه . وما يدور فى أذهان مجتمعة فإن التعبير عن مثل ذلك . وبمثل هذا الأسلوب الواضح (والدوغرى) بالنسبة إليه كان جهداً مخلصًا حقًّا . فهو – أى السادات – كان يشعر أنه إنما يتناول نقطة تحول رئيسية ..

تحذير قوى .. منهم فيهم

أغسطس ١٩٨٠

هذا التعاطف التلقائى الذى يعبر فوق رءوسهم كأفراد . ويتخطى التفاصيل والصغائر .. لم يدركها المصرى منا قط كأقوى ما يكون الارتباط كمثل ما يشعر به عند مواجهة الإسرائيليين !

وهذا ما يحار فى فهمه الإسرائيليون !

وهذه هى رؤية مفكر إسرائيلى من خلاصة المثقفين .. إنه بروفسور شيمون شامير أكاديمى . وكان وهو لا يزال شابًا يرأس معهد شلوخ لدراسات الشرق الأوسط بتل أبيب .. وهو متخصص فى الدراسات المصرية . وبرغم أن كلمته مسموعة بين أوساط السياسيين فإنه لا ينتمى إلى حزب ، إذ لا تجذبه السياسة إلاّ بقدر ما تمس أو تؤثر على مستقبل إسرائيل ..

ومع الالتزام بأمانة العرض فإننى أبدأ فأسمح لنفسى بطرح أفكاره من (النهاية) .. من حيث توصل إلى توجيه تحذيره القوى إلى القادة الإسرائيليين ..

ينتهى بروفسور شامير إلى أن العلاقة أى علاقتهم بالفلسطينيين إنما تأتى بالنسبة إليه قبل أى شىء آخر . ليس لكونها مسألة أخلاقية مثلا ، ولا دينية ، ولا فلسفية ولا تاريخية . وإنما لأنها مسألة (وجودية) ..

لأن إمكانياتنا فى التوصل إلى أسلوب تعايش مع الفلسطينيين .. إنما هو (الثمن) الذى نقدمه لجيراننا نظير قبولهم لنا .. فإذا لم نحقق القبول لدى الجيران فإن كل اتفاق سلام .. بكل فقراته وديباجاته . بكل علاقاته الاقتصادية والثقافية إنما يكون مجرد كلمات مكتوبة على الرمال .. أى لن تستمر . فإذا لم يحدث القبول فنحن أيضًا لن نبقى هنا .

هذا هو نص التحذير القوى الذى انتهى إليه بروفسور شامير ، ولنبدأ الآن من البداية .. بالنسبة للمصريين ، فإن هذه الجملة كانت بدءًا لعلاقات جديدة مع دولة فى الشرق الأوسط هى إسرائيل . والتغيير الذى أحدثته هذه الجملة وهذا العمل خلال العامين الأخيرين فى مصر كان تغييرا حقيقيًا .. فكلنا ظللنا نتساءل حول ذلك لفترة .. فلم يحدث من قبل أن شاهدنا تحولاً أيديولوجيًا من قبل ، أو تنازلا جديدًا لواقع على الطبيعة .. وإنما مما حدث داخل مصر .. فقد كان تحولاً

هاماً جداً .. كنت قد عدت لتوى من مؤتمر دولى كان من حضوره وفد من الشخصيات المصرية المتميزة . » وقد قال لى أحد الأعضاء ، وهو أحد المشتغلين المعروفين بالتاريخ ، صارحنى خلال إحدى الاستراحات بين الجلسات أنه – بعد مبادرة السادات – قد استعصى عليه النوم لثلاث ليال متتالية » .

« وقال : لم أتمكن من هضم هذه الجملة بسهولة .. فقد كانت متعارضة تماماً مع معتقدات مترسبة فى أعماق . ولم أفهم كيف يعبر السادات بهذه الكلمات .. وبعد أيام ثلاثة بدأت أتحدث مع أصدقائى ، ومع زملائى ، ومع أناس بسطاء من الشارع . واكتشفت أن هذا ما يريده المصريون فعلا . وأن مجتمعنا مستعد بالفعل لعلاقات جديدة مع دولة إسرائيل .. ولصورة جديدة للشرق الأوسط .. وبدأ فكرى يتغير. وأخذت أؤيد مبادرة السادات » .

« بالنسبة إلى أنفسنا . بدأنا نوعاً من الحوار مع المصريين . كان فى نواح كثيرة منه حواراً بين (طرشان) .. فالمصريون توقعوا استجابة منا .. شعروا أنهم قد بدءوا من النهاية . بعد قفزة فوق كل الحواجز فى الطريق وتقبلوا إسرائيل» !

« وتوقع المصريون منا أن نبدأ أيضاً من النهاية . أن نعيد أراضيهم ونصل إلى اتفاق مع الفلسطينيين . هذا هو الهدف .. ولكن فى إسرائيل يوجد من يقولون : ماذا قدم السادات من (فعل) فى الحقيقة يساوى كل ذلك ؟ السادات جاء ، والسادات ذهب وكلٌ يستطيع أن يأتى ويقول كل ما يخطر له . إنها بلا شك مسألة دعاية .. فإنه غاية فى الذكاء .. وكثير من الإسرائيليين يفضلون تعبير غاية فى الذكاء عند وصفهم للسادات ... وها هو ذا يخدمنا بمهارة . فماذا أعطانا بالمعنى الحقيقى ؟ إنه لم يعطنا شيئاً على الإطلاق !

وإننى . مازلت أتعلم كل يوم أكثر . إن المصريين قد توقعوا منا أن نفهم المغزى أو الإشارة أو المعنى الهائل والعطاء المعنوى الضخم للحظة التحول التاريخية الكبرى

التى قدموها إلينا » .

« لقد جاء السادات إلى القدس بدون استشارة مسبقة مع الولايات المتحدة .. ولمدة خمسة أيام متتالية كانت أمريكا كلها فى حالة ذهول حتى بدءوا يستعيدون الوعى . وأخذوا يتجاوبون بتردد ويكيفون أنفسهم مع الحالة الجديدة ... كانت إشارة السادات إلى إسرائيل هى : تعالوا لنقيم معًا سلامًا . وكونوا جزءًا من منطقتنا . . ولكننا اتجهنا وجهة أخرى ، ذهب رئيس وزراء إسرائيل إلى الإسماعيلية عن طريق واشنطن ! ووصل مصر ملوحاً بنوع من الاتفاق ظن أنه (إنجاز) قام به مع الرئيس الأمريكى . وحتى يقول – أو كأنه يقول : نحن والولايات المتحدة متفقون على أن تقبلوا بضعة أمور ربما لا تريدونها ! واستجدت بعد ذلك أحوال فى المفاوضات ترجمها المصريون بمعنى واحد : إن الإسرائيليين لم يتغيروا » ...

الاختيار الصعب

أغسطس ١٩٨٠

ومن الممكن التساؤل الآن .. وماذا بعد .. (وهم) لا شك أيضاً تجدهم يتساءلون .

ولنواصل طرح هذا الفكر الإسرائيلى الذى يواجههم بما يهربون من مواجهة أنفسهم به .. وهذا هو الفارق الهام بين السياسى المحترف وبين المفكر .. الأول مشغول بالحاضر .. والآخر ينظر إلى بعيد .. وقلة نادرة من الزعماء السياسيين فى العالم استطاعت أن تجمع بين الخاصتين « معاً » .. وليس من هؤلاء مناحم بيجين بكل تأكيد .

ويواصل بروفسور شيمون شامير : « أود أن نقول أشياء نشعر بها جميعًا بقلوبنا فى إسرائيل .. وإنْ كنا لا نعبر عنها وربما لا ننطق بها .. إن بإمكان إسرائيل كدولة أن تدافع عن نفسها لدى قيام صراع فى هذه المنطقة .. وذلك على المدى القصير ، وربما أيضا على المدى المتوسط ، أى أبعد قليلا .. ولكن ليس الأمر كذلك على المدى الطويل .. ليس كذلك بكل تأكيد.

ولست أعرف– والقول للبروفسور شامير– أى خبير فى الأمن أو الإستراتيجية يختلف مع هذا الرأى .. فإن إسرائيل سوف تواصل بقاءها على المدى الطويل فى حالة ما إذا استطاعت أن تفيد من الفرصة المتاحة لها كى تكون « مقبولة » من جيرانها .. وبعيدًا عن كل المتناقضات والارتباك ، والحقائق المتشابكة التى تتصل بعلاقاتنا مع العرب .. فهذه هى الحقيقة الأساسية التى يجب أن تستقر فى عقولنا .. مسألة الوجودية . مسألة المسائل . أو كيف نضمن وجودنا فى هذه المنطقة ؟ بالقوة ! نعم .. وعلى المدى القريب ولكن على المدى البعيد فلا .. وعلى ذلك وفى نقطة ما ، فإن (طريق قبولنا) يجب أن يبدأ .. ولقد بدأ . ومن الممكن أن ينجح .. أو قد يفشل.

ولابد لى من القول ، وبمزيد من القلق ، إن فرص النجاح قد تقل من يوم إلى يوم .. فإذا فشلت المرحلة الحالية فإننى لا أرى فى المستقبل القريب ، ولا حتى فى المستقبل الأبعد ، حاكماً عربيًّا سيكون على استعداد للدخول فى هذه التجربة معنا .

إن مشكلتنا الحالية هى كيف يمكن إقامة بناء للسلام ويكون مقبولاً من جيراننا .. إن ما نسمعه اليوم فى العالم العربى يحمل مضمونين أساسيين : أحدهما يواصل الخط القديم ، وأصحابه على غير استعداد لتقبلنا ، ويوجد منهم الكثيرون .. يوجد مقابل هؤلاء من يقولون إنهم على استعداد لتقبلنا . ولكن علينا

أن نمر أولا فى الامتحان .. وهذا الامتحان يتضمن مادة واحدة ، هى المسألة الفلسطينية ، ويمكن فيما بيننا كإسرائيليين أن نتحدث ليوم بطوله حول القومية الفلسطينية ، وإنها لم تكن قائمة يوماً .. ويمكن أن نتحدث عن حقوقنا التاريخية ونقيم ألف دعوى ، ولكن كلها لا تهم العرب فى شىء أمام هذه المسألة التى يضعونها أمامنا كتحدٍّ قائم .. فإذا أردتم أن تكونوا جزءًا من منطقتنا فاثبتوا أن بإمكانكم الوصول إلى طريقة تعايش مع جيرانكم ، ويوجد قسم كبير – ليس فقط فى مصر وإنما فى العالم العربى كله – على استعداد لقبول هذا الامتحان باعتباره الامتحان الحاسم والفيصل .. وأما نحن من جانبنا ، فإن كل ما نقدمه مع كل مستوطنة جديدة .. مع أشكال الحكم الذاتى التى نسمع بها هذه الأيام ، إنما هى إعلان متغطرس يفصح بأننا لا نريد أن نتعايش مع الفلسطينيين .. التعايش .. أى العيش معًا كجيران بالمعنى الذى يفهمه العرب .. وبالطريقة التى يقدمونها كامتحان .. وكثمن لاستقبال إسرائيل .

إن إجابتنا على هذا النحو .. وفى هذه الآونة هى « لا » .. وهو ما أعتبره شيئًا فظيعاً فى حق القيادة الإسرائيلية ..

إن علاقاتنا مع الفلسطينيين ، بالنسبة إلى شخصيًّا ، تأتى قبل أى شىء آخر . ليس لكونها مسألة أخلاقية ولا دينية ولا فلسفية ولا تاريخية ، وإنما لكونها مسألة وجودية .. باعتبار أن بإمكاننا التوصل إلى أسلوب معايشة مع الفلسطينيين هو ثمن تقبلنا من جيراننا .. فإذا لم يتقبلنا جيراننا فإن كل اتفاق سلام ، بكل فقراته وديباجاته ، بكل علاقاته الاقتصادية والثقافية سيكون مجرد كلمات على الرمال .. لن تستمر .. فإذا لم نُقبَل (بضم النون) فنحن أيضًا لن نبقى هنا » .

إلى هنا ينتهى رأى بروفسور شامير ..

ولنطرح نحن على أنفسنا هذا التساؤل .. وماذا بعد . فالحقيقة المرة تؤكد أن

القدس والضفة وغزة هى مسائل قابلة للتفاوض لدى حفنة من المفكرين والأكاديميين والمثقفين من الصحفيين .. فقط حفنة أو أقلية إسرائيلية مؤثرة .. قد يكون وراءها رجل الشارع أو ربما لا يكون .. فهذا عنصر يمكن التأثير فيه وهو سريع التغيير ويكفى للتصور – أنه لو توافرت بالفعل النية السليمة للتفاوض فعلاً من قبل القادة الإسرائيليين حول الحكم الذاتى (الكامل) وفق ما هو منصوص فى كامب ديفيد ، لكان الأمر الآن مختلفاً من شتى الوجوه ..

وأوضح الدلائل على (نفاق) الحكومة الإسرائيلية أنها هى التى تدعو وتكرر الدعوة إلى مصر للعودة إلى المفاوضات .. وكأنها بهذه الدعوة تمحو كل شبهة عن نواياها .. فإن واجهة المفاوضات تتيح لها خداع العالم وكأنها ماضية فى طريق السلام .. فى حين أنها (تخرب) الطريق .. فهل يوجد تخريب أكثر من اختيارها لإقرار قانون بضم القدس العربية برغم الأغلبية الساحقة من سكانها .. هل يمكن تغيير (قومية) الناس بقانون ؟ وهل تتحول الآلاف المؤلفة من عرب القدس إلى إسرائيليين بالقوة ؟ .. أو هل ستدعوهم حكومة إسرائيل إلى الهجرة منها والرحيل ؟

أين حقوق الإنسان .. ومبادئ المجتمع الدولى ؟ .. وماذا بقى للتفاوض من أجله مع مثل هذه الحكومة ؟ . إن ضم القدس الشرقية بالآلاف المؤلفة من العرب الفلسطينيين ليست مسألة أمن ولا بقاء لإسرائيل .

ولابد أن نتعامل معهم من الآن على أساس أن هناك شطرًا كبيرًا من الإسرائيليين لا يريد ولا ينوى إعادة القدس العربية ولا معظم الضفة الغربية .. ولا هم جادين فى إتاحة حكم ذاتى كامل للفلسطينيين .. فإن قسماً غير قليل من الإسرائيليين ينادى بلا خجل بالضم .. ضم القدس .. وأراضى الضفة الغربية (بمشيئة الرب) وباسم إسرائيل الكبرى ، واستعادة التوراة .. بل بتكفير كل من يعيد شبرًا من الأرض إلى العرب .

ومع ذلك فإن تصور المرحلة القادمة ليس قاتمًا ولا شيئاً صعباً للدرجة التى قد يبدو بها للوهلة الأولى .. فإن إسرائيل قد دخلت لأول مرة مرحلة مواجهة مع دول أوربا الغربية والرأى العام فى أمريكا .. فإذا كانت الدول والحكومات ، وعلى رأسها أمريكا ، لا تريد أو لا تستطيع أو تبدو مترددة عاجزة عن الضغط على إسرائيل بالقدر الكافى حتى تقبل بالتسوية المعقولة .. فإن الأحداث هى التى تستطيع أن تدفع هذه الحكومات فى المرحلة القادمة . فى قاموس الضغط السياسى الشهير بالدبلوماسية الدولية تدخل تعبيرات . وتتقهقر تعبيرات . فإذا كان تعبير (المصالح) هو التعبير الشائع فى الستينيات والسبعينيات .. فإن مع الثمانينيات يبرز تعبير (الحدث) ودوره وأهميته .. فمن الأحداث ما قد يجرف أمامه صداقات تقليدية .. وما قد يزلزل الجغرافيات السياسية ، ويغير معالم إستراتيجيات ، ويعيد تقييم حسابات كانت فى حكم الثابتة .. والذى يستطيع أن يحسب من الآن ويقدر مبلغ دفع الأحداث وسرعتها يستطيع أن يسيرها فى اتجاه أهدافه ، بحيث تخدم أغراضه العاقلة المعقولة ... ومن ثمَّ فهو الذى يكسب المرحلة القادمة .

المبادرة الأوربية

أغسطس ١٩٨٠

ولكن أن يتصور أحد إمكان إيجاد حل نهائى للقضية الفلسطينية من خلال تنظيم مؤتمر دولى يعقد على نمط (جنيف) أو غيرها .. فهذا للأسف مجرد (تصور) نظرى ومثالى فحسب .. لأنه قد ثبت تاريخيًا وعمليًا وواقعيًا ألاَّ نتيجة هناك لأى مؤتمر يُعقد طالما أن أحدًا لا يملك فيه حق « الإلزام » لأحد .. ولا على أحد أن يمتثل إلى (أحكام) يستصدرها الآخرون .. إلاَّ إذا كان الغرض أن يكون منبرًا

للمرافعات ومسرحاً لمناورات المصالح الدولية . وقد شبعنا من ذلك . وشبع العالم !

وليس المقصود من هذا هو التقليل من أهمية مبادرة أو محاولة أوربية قد تؤدى إلى الدعوة لمثل هذا المؤتمر .. وهو ما قد يرحب به أو يدفع إليه البعض كمجرد بديل لإزاحة اتفاق كامب دافيد .. ولا هو أيضاً بدفاع عن هذه الاتفاقية . ولا يعنى أنه ليس من بعدها ولا غير هذا الأسلوب للمفاوضات من بديل .. وإنما فقط لنتذكر أن نكون موضوعيين وواقعيين فى هذه المرحلة المصيرية للمنطقة كلها .. وأن نقدم مصلحتنا جميعًا وهى الاستقرار على سائر المشاعر الشخصية والخاصة ، وأن نستفيد من تجاربنا على أقل تقدير !

أحياناً يخيل إليك لدى مناقشة الإسرائيليين أنهم أصبحوا لا يعرفون حقًّا ماذا يريدون .. لذلك فليس أفضل لديهم من استمرار الأوضاع الحالية على ما هى عليه إن أمكن .. ولكن ليس هذا من الممكن . وهم يدركون ذلك بعقولهم وليس بقلوبهم .. فإن حركة الأحداث لا تسير دائماً وفق ما يريد الإسرائيليون .. بمعنى مواصلة سيطرتهم بطريقة أو بأخرى لسبب أو لآخر على الضفة الغربية إلى ما لا نهاية .. فإن للوضع الحالى نتيجة محسوبة.. وصعبة ولا يمكن الهروب منها .. فإن حقيقة القوة العسكرية لإسرائيل تقابلها حقيقة أخرى وهى وجود أكثر من مليون عربى فلسطينى رافض للتبعية الإسرائيلية .. هذه حقيقة ثابتة ولا يمكن محوها ولا التغاضى عنها ، ولا حتى التهوين من شأنها مع الوقت ، والأهم من ذلك أن تشريد عدة آلاف من الفلسطينيين بين أنحاء العالم العربى سوف يؤدى إلى قيام حركة ثورية فلسطينية عامة .. وهذا التواجد الفلسطينى الثورى بين عدد من دول الشرق الأوسط إنما يضفى عاملاً آخر إلى عوامل عدم الاستقرار الأخرى لأشكال التغلغل السوفيتى واقترابه الحثيث من منابع البترول .

ووفق ذلك ، وطالما بقيت الحاجة إلى بترول الشرق الأوسط .. على الأقل

طوال حقبة الثمانينيات طالما بقيت هذه المنطقة على رأس قائمة الاهتمامات الدولية .

وأى « حدث » يمكن أن يقع كفيل بأن يعرض مصالح الغرب كله لاحتمال كارثة مؤكدة ! وحالة غليان ثورى فى المنطقة الرخوة تؤدى إلى إحداث مشابهة لما وقع فى إيران ، بل ربما على نطاق أوسع .

ومما يدهش حقًّا قلة المقترحات والأفكار (العالمية) التى تبذل أو تُقدم حتى الآن لإيجاد مخرج للطريق المسدود الذى وصلت إليه (المحاورة) مع الإسرائيليين ..

فإذا كانت المبادرة أو المحاولة الأوربية تتجه إلى طرح أفكار أو فكرة (معدلة) ويقبلها الطرفان الأساسيان – وهما الفلسطينيون والإسرائيليون – فهى محاولة إيجابية ، وقد يقدر لها النجاح .. خاصة أن الشواهد كلها تدل على أن المنظمة – وأيضًا بفعل دفع الأحداث ومحاولات تصفيتهم من قبل الدول العربية ذاتها – قد تقبلت فكرة (دولة صغيرة) فى الضفة الغربية وغزة بما فى ذلك القسم العربى للقدس .. بل يذهب البعض إلى تأكيد قبولهم لمعاهدة بنزع السلاح تماماً بما فى ذلك تنظيم وضع دولى يسمح بالتفتيش .

ورئيس المنظمة قد قرر لرئيس المجموعة الأوربية ما سبق أن ذكره فى حديث صحفى قبل ذلك الاجتماع بحوالى أسبوع .. ويتضمن تأكيده القاطع بأن الباب لا يزال مفتوحاً أمام المفاوضات السياسية ..

وقد سبق أن اقترح بن جوريون عندما كان رئيسًا لوزراء إسرائيل فى الخمسينيات فكرة حلف (أمريكى – إسرائيلى) .. وهى نفس النظرية التى طبقت بعد الحرب العالمية الثانية فى أوروبا الغربية . وهو أساس ما تنعم به أوربا والعالم من أمن وسلام .. ولكنّ أحدًا يومها لم يهتم بهذا الاقتراح .. والسياسيون الإسرائيليون بصفة عامة لا يحبذون مثل هذا التحالف الذى يحقق لهم (منتهى الأمن) لأن معناه هو قبولهم لبعض الشروط .. وليس أقلها التشاور مقدما مع هذا الحليف ..

فاحاجتهم إلى الحد من حرية اختيارهم فى الإستراتيجية والتكتيك فى حين هذا الالتزام غير الرسمى الفضفاض يحقق لهم كل ما يطلبون بلا تكبيل ولا شروط !

مقابل ذلك الجانب الأمريكى أيضًا غير مُقبل ولا متحمس لكل ما قد يوْرطه فى مجازفات غير محسوبة لكل والتى قد يجد نفسه طرفًا فيها .. هذا علاوة على ما قد يشكله من ردّ فعل عكسى للعلاقات مع العرب الذين سيشرعون عندئذ فى التعويض مع حليف آخر بالمقابل مثل الاتحاد السوفيتى . كل هذه عوامل لها تأثير سلبى على التفكير الأمريكى ، يجعل الكونجرس يرفض على الفور قيام مثل هذا التحالف ، لو قدر له أن يكون مطروحاً ..

إذن هل نضّب تفكير العقل البشرى ؟ . وهل عجزت التكنولوجيا الحديثة عن إيجاد معادلة لهذه المعضلة .. دولة فلسطينية . وأمن لإسرائيل ؟ .

obeikandl.com